دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الشعر الجاهلي

دراسة في منازع الشعراء

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الشعر الجاهلي

دراسة في منازع الشعراء

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

الشعر الجاهلي
دراسة في منازع الشعراء
دكتور محمد محمد أبو موسى
الطبعة الثانية ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٦٧٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠٠٧/١٩٨٣٢
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
977-225-226-0

« اللهم إنى أشكو إليك هيمنة العدو الألدّ على أرضنا وثرواتنا وثقافتنا وساستنا وعقولنا وأقلامنا ومناهجنا ومدارسنا وجامعاتنا »

اللهم ارزقنا الحزم والعزم حتى نحتشد لمقاومة ذلك كله

اللهم انصر من قاوم، واخذل من رضى واستكان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي هدانا وما كنا لِنَهْتَدِيَ لولا أن هدانا، والصلاة والسلام على حبيبه وحبيبنا سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأزواجه وذريته الصالحين صلاة وسلاما دائمين ماذر شارق وبعد..

فالشعر الجاهلي لا يزال مذخورًا بالكنوز المَسْهُوِّ عنها، وهو الجذْرُ الذي تفرَّعَتْ منه فروع الشعر في الأعصار المختلفة، وفي البقاع المختلفة، والأزمنة المختلفة إلى يومنا هذا، وليس عندنا بَعْدِ كلام الله وكلام رسوله ﷺ بيانٌ أعلى منه، وهذا ما أجمع عليه علماء الأمة ولا يَشذُّ عن ذلك إلا من لا يُخرِّق بشذوذه إجماع، ومن أي جهة نظرت إليه نظر الدارس المُنْقَطِع المُتَثَبِّت رأيت أبوابًا تَتَفتحّ لك في مبانيه وفي معانيه؛ والسبب في غياب هذه الكنوز المذخورة في هذا الشعر وأن أبوابها لاتزال مُغْلقة هو أننا منذ زمن بعيد نَدْرُسُ هذا الشعر في ضوء ما تَعَلّمْنَاهُ من طرائق دراسة الشعر سواء كان الذي تعلمناه من كلام علمائنا، أو من كلام غير علمائنا مع ملاحظة أن دراستنا له في ضوء ما تعلمناه من كلام غيرنا أكثر، لأن تيَّارَ التغْريب في جامعاتنا يَشْتَدُّ ويَحْتَدُّ حتى إنه الآن أقوى مما كان في زمن الاستعمار، ولأننا كُنَّا في زمن الاستعمار، نقاوم الاستعمار، ونقاوم ثقافته ونُصِرُّ على أن يَرْحَل من أرضنا بثقافته، وأن يأخذ عصاه ويرحل كما كان يقول زعماؤنا الصادقون في زعامتهم، ثم رَحَلَ وَرَحَلَ معه زمانُه؛ وجاء زمن الهَيْمَنَة وهو أشد وأنكى وأقْتل، وظهر زعماء كَذَبَة يَدْعون إلى التغريب، وإلى ثقافة الهَيْمنة ويجدُّون في ذلك، ويربون الأجيال منذ الصِّبا على هذه الثقافة، ولا يجادل أحد في أن التغريب مطلب الغرب وأمريكا، ولا يجادل أحد أيضًا في أن التغريب يشتد أكثر في البلاد المرتبطة بالغرب وأمريكا، وهذا يعنى أن التغريب حركة سياسية وليس عملاً فكرياً ثقافياً نهضوياً تنويرياً كما يقول الأراجوزات المشتغلون فيه.

قلت إننا نقرأ الشعر ونحن محاصرون بطرائق في قراءته سواء كانت هذه الطرائق مستخلصة منه وهي طرائق علمائنا أو مستخلصة من غيره وهي طرائق قوم آخرين، ونحن في الحالتين لم نقرأ الشعر بعيوننا نحن والقراءة الأفضل هي القراءة التي ترى فيها عين كل قارئ باحثة في الشعر عن موطن جودته، سواء كانت هذه المواطن نَبهت إليها القراءات السابقة أو أغفلتها.

وحينئذ يصير كل قارئ هاديًا إلى شيء ما في مسالك هذا الشعر، وتكون قراءة الأفذاذ المتميزين لَبِنَاتٍ في بناء صرح بلاغته ونقده.

ولا شك أن كل مسائل البلاغة وكل أصول النقد هي ثمرة هذا الضرب من القراءات. حين يَتَجوَّل القارئُ بعينه وحِسِّهِ وذائقته ويُقَلِّبُ الشعر ويتدبره ويتذوقه حتى يقع فيه على شيء هو مَكْمَنٌ من مكامن حُسْنه وسِرِّه، ولا أجد مسألة بلاغية واحدة إلا وهي راجعة إلى مُسْتَقَرِّهَا في الشعر والبيان، ولا أجدُ أصلاً واحدًا من أصُول النقد إلا وهو راجع إلى مُسْتقَره فى الشعر والبيان، ولو قلت لكل ما في كتب البلاغة ارجع إلى مكانك الذي انتُزِعْت منه لوجدت كل مسألة بلاغية ناشبةً ببيت شعر، وكذلك لو قلت لكل ما في كتب النقد ارجع إلى مكانك الذي انتُزعت منه لوجدت كل ما في هذه الكتب عالقًا بالشعر، بل إنه ليمكنك وأنت تقرأ في قدامة أو ابن رشيق أن تقول إن هذا الفصل مُنتزع من ديوان فلان، وترى قدامة وهو يُحدِّثك عن معاني المديح كأنه يحدثك من شعر زهير، وهكذا، والذي أعْنيه أن كل هذه البلاغة وكل هذا النقد هو ثمرة قراءات للشعر لم تُطَبِّقْ أصولاً بلاغية أو نقدية في قراءة الشعر، لأنه لم تكن هناك أصول نقدية أو بلاغية، وإنما كانت تستخرج الأصول البلاغية والنقدية من الشعر، والسؤال الواجب هو هل استقْصَتْ هذه القراءات كل ما في الشعر من أصول نقدية أو بلاغية؟ أم أنها استخرجت من الشعر بمقدار ما أوتيت من جِدٍّ ويقظة وإخلاص وبقى في الشعر ما بقى؟ وقد شُغِلْنا نحن بما استخرجوه، وانصرفنا عما تركوه؟

وأعتقد أننا نظلم أنفسنا ونظلم الشعر ونظلم سَلَفَنَا من العلماء إذا قلنا إنهم لم يتركوا في البيان والشعر سراً إلا أشاروا إليه وأن الذي بين أيدينا من البلاغة والنقد هو كل ما في الشعر والبيان من أسرار بلاغته، وأصول نقده؟ والقول بأن الأول لم يترك للآخر شيئًا قول باعِثُه العجز والمَيْلُ إلى الاسترخاء. وقد أجمع الناس على رفضه.

ثم إن هذا الشعر الجاهلي واسع الثراء، واسع الخصوبة؛ بالغ في مبانيه ومعانيه النهاية التي لا يتجاوزها لسان الناس بهذه العربية الشريفة، هذا الشعر بَلَغ حدّ التَّنَاهِي كما يقول الباقلانى وهو مَظِنَّة أن يكون كَنْز أسرار بلاغة اللسان البشري، وبعيد أن تكون كتب البلاغة والنقد المحدودة والمعدودة بين أيدينا قد استقصت ما في هذا الشعر غير المحدود، وغير المعدود.

ثم إننا حين نتجاوز الشعر إلى الكتاب العزيز، ونتجاوز معه قدرة البيان الإنسانى وندْخل فيما لا يُستطاع نُصْبِح أمام كنز آخر من كنوز البلاغة، وقد رأينا علماء الإعجاز يتدافعون ويَنْقُضُ أحدهم ما يُثْبت الآخر، ورأينا شيخهم الباقلانى يرفض أن يكون لعلم البديع مدخل في معرفة الإعجاز، ويأتي بعده عبد القاهر ليؤكد أنه يحاول أن يضع اليد على مواطن الإعجاز، ثم يأتي بعده السكاكي ليُلْغِيَ كل الجهود التي سَبَقَتْ ويقول مدرك الإعجاز عندي هو الذوق، وهكذا، وهذا كله يؤكد أن الشعر الجاهلي الذي هو ذروة البيان الإنساني لايزال عامراً بكثير من أصول نقده وبلاغته، ولا تجد قراءة أشَدّ مُتْعةً من القراءة التي تحاول أن تكتشف خبيئة من خبايا الزوايا، وقد استشعر سَلَفُنا من علمائنا هذه المُتْعة وكانت كلمة الخبيئ والدفين والإشارة إلى الخبيئ والإيماء إليه كان ذلك ومثله يكثر في كلامهم، لأن الواحد منهم كان يتمثل علم سلفه ولا يُفَرّط في شيء منه ثم يَسْلُك دَرْبهَم الذي اكتشفوا فيه هذا العلم ليقع على شيء مما وقعوا عليه، وليس أجل من اللحظة التي يتحرر فيها العقل ويغمره الإحساس بأنه مُستطيع ما استطاع

غيرُه وأنه قادر على أن يَسْلُك الدَّرْب الذي سلكه الأفذاذ؛ وأن يستخرج منه مثل ما استخرجوا.

ومن كرم الله لعلماء هذه الأمة الذين هم ورثة النبوة أنهم حين يجتهدون ويجمعون أنفسهم ويصبرون ويَتَجرَّدُونَ إما أن يعودوا بما راموا كشفه أو يعودوا بزيادة راجحة في باب العلم الذين جاهدوا فيه، فالذي يتجرَّد ليكتشف شيئًا من بلاغة الشعر ونقده إذا لم يعد بشيء من ذلك سيعود بمزيد من القُرْب من هذا الشعر ومزيد من الوعي به، وبمزيد من حلاوة تذوقه، والله سبحانه وتعالى حيٌّ كريم يَسْتَحْيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا حتى يضع فيهما خيرًا، وما رَدَّ الله يد عالم امتدت إليه ليكتب كلمة نافعة لأجيال أمة محمد ﷺ حتى يَضَع فيها خيرًا، وهذا يعني البحث عن الجديد في بلاغة هذا اللسان في شعره الذي هو ذِرْوَةُ بيان الناس وفي كلام نبيه ﷺ الذي هو أفصح من نطق، ومَنْ ينطق ومن سينطق بهذا اللسان، وفى كلام الله القاطع للأطماع والقاهر للقوى والقدر وإذا لم تقع على شيء فحسبك أنك ستزداد قربًا من هذا البيان العالي.

وقد كتبت ما كتبت في التفسير والحديث والشعرو الجاهلي والبلاغة وكان الهاجس الساكن في نفسي في كل مراحل الكتابة هو البحث عن خبيئ من أسرار البيان وقد زادني البحث عن الخبيئ ولَعًا بهذا البيان وتَوْقًا دائمًا إليه، وكنت أرَى أن مُتْعَتِي بالشعر وبالكلام العالي هي عدل مُتْعَتي بالكشف الذي لم يتيسر لي، لأني لا أعرف في المشَقَّة مَشَقَّة تَعْدِلُ استخراج سِرٍّ من أسرار بلاغة الشعر، وتعدل ما سماه السكاكي «تتبع خواص تراكيب العرب» لاستخراج الأصول منها، ولهذا كان لهؤلاء الذين استخرجوا ما استخرجوا مكانة كبيرة في نفسي، وأعذر الذين يَقْدَحُون فيهم لأني أعلم أنهم جاهلون، وماداموا يجهلون عِلْمَ وعمل العلماء فلا يلامون من النيل منهم، لأن الجاهلين لأهل العلم أعداء.. كانوا.. ولايزالون.. وكان يقع في نفسي أحيانًا أن سر التأثير في الشعر يشبه سرَّ الروح في الإنسان

نَسْتَمْتِعُ بها ولكننا لا نملكها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] وقد سمّى الله سبحانه وتعالى البيان العالي روحًا في قوله جل شأنه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ولله المثل الأعلى.

والعجيب أن العلماء الذين استخرجوا ما استخرجوا نبهوا إلى أنهم تركوا أشياء يفضي تتبعُّها إلى الخروج عن الشأن الذي هم فيه، وكان الباقلاني يقول لقارئه لقد نبهتك وبيَّنْتُ لك الطريق، والسير فيه بعد ذلك عليك، ويقول عبد القاهر في معاني كلمة (إنَّ) «وليس الذي يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق والأمور الخفية بالشيء، يدرك بالهوينا ونحن نقتصر الآن على ما ذكرنا ونأخذ في القول عليها إذا اتصلت بها «ما»» ومثل هذا كثير جداً والغريب الأغرب أنني لم أجد أحداً ممن جاؤوا بعدهم قد أتمَّ ما بدؤوه.

وكل هذا يُغْرى بأن اللسان مَطْويٌّ على أسرار من نوع ما ذكروه وعلى أسرار من النوع الذي لم يذكروه، والمطلوب من القراءة المتقطعة للشعر أن تستخرج شيئًا من هذا أو أن تقرِّب الطالب الباحث إليه إذا لم تستطع ذلك، وأكرر أنني حاولت ذلك في كل ما كتبت لأني أقرأ كلام العلماء كما أقرأ الشعر أبحث في كل عن خبيئ وكنت أجد لمعًا ولم أُنَبِّه إلى أنها من هذا الباب الذي شُغِلْتُ به، وكنت أقول للقارئ هذا الكلام لم آخذه عن من يؤخذ عنهم العلم فراجعه، لأني أخْشَى أن أستخرج من البيان أو من كلام العلماء ما ليس فيه فأكون قد كذبت عليهم أو دلّستُ على القارئ.

ولابن خلدون إشارة إلى فكرة لم يشرحها وإن كانت إشارته إليها قوية وهي أن قدرات وطاقات هذا اللسان العربي ووسائله في الإبانة متسعة جداً لأنه يَدُل على المعاني بالألفاظ وبأحوال الألفاظ من تعريف وتنكير وبغير الألفاظ كالتقديم والتأخير والحذف، وهذه الإمكانات اللغوية هي التي وسّعت مسافات التفاصل في الكلام وباعدت بين طبقاته وهي التي - وهو المهم - مكَّنت القوم من التسابق والتنازع والتنافس في باب البلاغة والبراعة، ولولا هذه اللغة ما كان لهذا الجيل أن

يبلغ الذروة التي بلغها، ولولا هذه اللغة لما كان القرآن معجزاً لأن القرآن كالإنجيل والتوراة والكل كلام الله، وإنما كان من بينها معجزا لأن اللغة التي نزل بها فيها من الخصوصيات والكيفيات والأحوال ما ليس في اللغات التي أرسل الله بها رسله.

والجديد في هذه الفقرة التي جاءت مضمرة جداً في كلام ابن خلدون أن تَفَوُّقَ القوم في البلاغة، والبراعة، يرجع كثير منه إلى اللغة نفسها، وليس إلى الجنس من حيث هو جنس، وأن هذه اللغة بتَفَاضُلِ طرائقها هي التي أثارت الملكة البيانية عند هذا الجيل والأجيال قبله واستفزت هذه الملكة حتى بلغت أقصى ما تستطيعه فطرة البيان في هذا الإنسان.

لا شك أن ابن سلام لما جعل الشعراء في طبقات وأسَّس هذه الطبقات على التقارب في المذهب الشعري كان يعرف المذهب الشعري الذي تقاربت فيه كل طبقة، ولكنه كغيره من كثير من علمائنا كانوا لا يشرحون ويَفْتَرِضُون أن الناس يعلمون ما يعلمونه هم، هكذا كانوا في الجاهلية وكانوا في الإسلام قبل عصر التدوين، ولا شك أيضًا أن كتاب ابن سلام محتاج إلى دراسة تكشف هذا الغموض، وأن هذا الغامض باب من أبواب نقد الشعر لم يكتشف، ولم يُدْرس ولم يُحَلّل، وقريب منه كلام الباقلاني في سبك أبي تمام وسبك مسلم وديباجة البحتري وديباجة ابن الرومي، وأن كل هذا مختلف وأن كل هذا غير مدروس، وسبك أبي تمام يَعْنِي مذهبه الشعري، وكذلك سبك مسلم، وكل هذا كان يجب أن يكون مدروسًا دراسة علمية محددة، ومُفَصَّلة ومُتَمَيِّزة، والغريب الجليل أن الباقلاني كان يرى أن معرفة مذاهب الشعراء والكتاب لا يعُوَّل عليها بعلم يدرس وإنما بالمقاربة المباشرة للشعر وتدبره وتأمله فلن تستطيع أن تعرف مذهب أبي تمام من كلام الآمدي ولا غيره وإنما تعرفه بالاستغراق المباشر في شعر أبي تمام، والملازمة المنْقَطِعَة له، مزيحًا كل واسطة بينك وبينه، ومتأملاً فيه بسكون طائر وخفض جناح كما كان يردد، ومن كلماته العجيبة قوله «وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل»، يعني ليس أن تقرأ في كتب النقد ولا في كتب البلاغة، وإنما أن تتدبر الكلام وأن تتفرّس فيه وأن تتجوّل بعقلك وقلبك ولسانك في خفايا مبانيه،

و

حتى تدرك سره، وهذه هي القراءة الحُرّة التي أقول إن الشعر لايزال مغلقًا على كثير من أسرار بلاغته لأنه لم يقرأ هذه القراءة وإنما يقرأ في ضوء ما استخرجه علماؤنا من طرائق العربية في الإبانة عن المعاني وهذا جيد جداً؛ ولابد أن يكون مصاحبًا لنا ونحن نقرأ الشعر وإنما أزاحه الباقلاني لأن جيل الباقلاني كانت لاتزال سلائقه مُحْتَفظة بهذه الطرائق أو بأكثرها لأنه جيل أبي الطيب، وجيل أبي الفتح، وجيل سيف الدولة الحمداني.

الباقلاني يقول من وراء هذا يجب أن يكون لكل واحد منا تجربته الخاصة في تذوق الشعر وتحليله وتَبَيُّنه وكشف أسراره وهي من أمتع التجارب وأفضلها، وكما كان لكل شاعر مذهب ومنزع في إنشاء الشعر فالواجب أن يكون لكل قارئ مذهب ومنزع في تذوق الشعر وتحليله ونقده، وبهذا تنمو المعرفة وتزدهر وتزهو أيضًا وليس بمضغ رجيع ثقافات البشر لأن هذا المضغ أشبه بعمل العبيد والخدم، وقلت إنه مطلب العدو التاريخي وهو عمل سياسي مشبوه ومنذ زمن قريب جداً كنا نَدْرس في جامعاتنا مادة اسمها الغزو الفكري، وكانت تنبه الجيل إلى خطر التغريب على علومه وثقافته وهويته وقد زُوِّر كل هذا الآن وسُمّي تنويراً وتحديثًا وتجديدا لما تغلغل النفوذ الأمريكي وصار زعماؤنا رجالاً له أو عمالاً له، ومن خير من كتبوا في مادة الغزو الفكري الدكتور محمد حسين في الاتجاهات الوطنية والدكتور محمد البهي في الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي والمرحوم محمود شاكر في أباطيل وأسمار والطريق إلى ثقافتنا.

لاشك أن أطْلاَلَ مُعَلَّقة طَرَفة لا تصلح أن تكون أطلال معلقة زهير؛ بل ولا تصلح أن تكون أطلال قصيدة أخرى لطرفة، لأن أطلال معلقة طرفة هي رأس معلقة طرفة، ولا تصلح أن تكون رأسًا لغيرها، وكذلك قل في الحُدُوج، والنّاقة، وليس لكل شاعر ناقة، وإنما لكل قصيد ناقة، لو خلعتها من قصيدتها وزَرَعْتها في غيرها لماتت هذه الناقة، ومات معها الشعر، وكذلك قل في العَيْر والثَّوْر والأُتُن والبقرة المسبوعة، والظليم الذي أموت وفي نفسي شيء منه، كل قصيدة تثير في

الحيوانات التي فيها أحوالاً ونوازعَ تختلف عن الأحوال، والنوازع والهواجس التي في الحيوانات الأخرى في القصائد الأخرى وكل ذلك مرتبط بالجو العام للقصيدة.

وكل ذلك لم نَدْرُسْه مع أنه مُسْتَوْدع الشعـر، وهو في البناء الكلي للقصيدة بمثابة الخصوصيات والكيـفيات. أعني أن هذه الحيوانات أوْعيَة معانٍ أسْكنها الشـاعر فيها كما أسكن مـعانيهُ ومقـاصده في التقديم، والتعـريف، والفصل، والوصل، وكنت أوازن بين حُمُـر الأعشى، وأجد كل عَـيْرَ فيـها متناغمًـا ومتجـانسًا ومُتَطَاعـمًا مع المكوِّنات الأساسية في القصيدة وهذا عالم زاخر بالمعاني والقيم حتى إنك لترى العَيْر أحيـانًا فيه من الحكمـة وحُسْن الرِّعَاية وسَـدَاد القيـادة لعشيـرته من الأتن حتى إنه ليحتال بذكاء شديد حتى يُنْجِيَهُم من المهالك الـمُوبِقة التي لا ينجو منها إلا صاحب عَقْل وحِيلةٍ، وكأنه زعيم جماعة من البَشر تعيش في قلب العواصف، ويستطيع هذا الزعيم أن يحـوطهم بحكمته وعقله حـتى لا ينالهم شيء من الأذى، وهم في قلب الشرور والأذى، ولـم أعرف في دراسة هذا الشعر شيـئًا أفضل من أن نفتح فيه آفاقًا جديدة في تذوقه، وتحليله، وليس هناك أشق من فـتح نافذة جديدة في أي باب من أبواب العلم، وليس هناك أفضل من فتح هذه النافذة وما أجْدَرنا بأن نفعل ذلك في أُمة من المحيط إلى الخليج فـيها آلاف الجامعات، وآلاف الأساتذة، ولكنهـا تَبَعْثَرَتْ وتَبَعْثَرتْ جهودها في مضغ رجيع ثقـافات الأمم، ولو أن كل أستاذ كتب لنا صفحة واحدة تحـاول فتح أفق جديد لكان لنا من وراء ذلك خـير كثيـر، والغريب أن هذا العدد الكبـير من الأسـاتذة الذين رضوا بمضغ رجـيع الثقافـات لـم يفطنوا إلى أنهم يعملون في إنفاذ مـشروع غربي مسيـحي صهيوني لا يقبل عـاقل أن يكون مشروع نهضة إلا أن تكـون نهضة العبيـد، ولم يفطنوا إلى أن سادتنا الزعمـاء قدّموا أرضنا لتكون قرابين لبـقاء سلطانهم وسلطان أبنائهم من بعدهم، وهؤلاء الزعـماء الكذبة، بمؤازرتهم التغريب يقدمون الأمة كلهـا قربانا لبقائهم في الحكم، والصمت على هذا صمت على جريمة تاريخية هي حالقة الدين والشعر والوطن معًا.

وقد فتح المرحوم مـحمود شاكر فتحين جليلين في هذا الشـعر الجاهلي: الفتح الأول في تحليل معانيه والفتح الثاني في تحـليل مبانيه، وهذا الفتح الثاني هو الذي

أريده لأن مقصودي هو تحليل مباني الشعر وتذوقه من خلال البحث فيه عن طرائق أخرى لاتزال خافية فيه لأن القراءات السابقة لم تستقص كل ما فيه من أصول نقدية وبلاغية والمطلوب كما قلت وأكرر أن نستصحب ما استخرجوه ثم نفتح عيوننا للبحث فيه عن شيء تركوه.

وقد سار المرحوم محمود شاكر على نهجهم واستخرج الكثير واهتدى إلى الكثير وذلك في دراسته المتميزة «إنّ بالشّعب الذي دون سلْع لقتيلا دمه ما يُطلّ»، وقد نشرت هذه الدراسة في مقالات في مجلة المجلة في العقد السابع من القرن الماضي، وكنت آنذاك طالبًا في الأزهر، وكنت شديد العناية بالتعرف على مناهج تحليل البيان وكانت هذه الدراسة بتفردها وتميزها كأنها تفاجئ طلاب العلم الذين صدّعتهم المناهج الغربية ومن شدة حرصي عليها كنت أكتبها في دفتر لايزال عندي خوفًا من ضياع عدد المجلة ثم نشرت في كتاب «نمط صعب ونمط مخيف»، والمراد بالنمط المخيف هو ما كان من المرحوم يحيى حقي من العناية بهذه القصيدة لما كتب عنها جوته الألماني، والمخيف هو أن تكون عنايتنا بشيء من شعرنا أو علومنا راجعة إلى عناية غيرنا به وهذا المخيف لايزال سائدًا.

أما تحليله للمعاني فقد كان في قصيدته (القوس العذراء) وهي قصيدة من حُرِّ الشعر كتب عنها الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور مصطفى هدّارة والدكتور إحسان عباس والأستاذ عادل الغضبان رحمهم الله جميعا كما كتب عنها الشاعر محمود حسن إسماعيل في جملة أبيات نشرها المرحوم شاكر بخط محمود حسن إسماعيل مع القصيدة وكان شاكر يرى أن العربية لم تعرف شاعرا بعد المتنبي أشعر من محمود حسن إسماعيل.

وكان يقول إنه ترك الشعر لمحمود حسن إسماعيل، وقصيدة القوس العذراء لها مقدمة طويلة كتبها المرحوم شاكر عالج فيها قضية من أحدث قضايانا؛ وكل ما في القصيدة من شعر ونثر يرجع رجوعًا واضحًا إلى أبيات قالها الشماخ في وصف القوس، وقد كتبت عنها رسالة تحية للمرحوم محمد شاكر ورأيت كل ما فيها يرجع

إلى أبيات الشماخ من غير تكلف، وبيّنْتُ ذلك بيانا ظاهرًا ورأيتها صورة يجب أن تُحتَذَي في قراءة التراث، وسميت الرسالة «القوس العذراء وقراءة التراث» وقد قرأها المرحوم محمود شاكر ورضيها وقال لي لقد تنبهت إلى شيء في هذه القصيدة لم يذكره أحد ممن كتبوا عنها، لأن هَمِّي وسدمي كان ولايزال هو البحث عن شيء في طيٍّ كلام علمائنا لم يتكلموا به صراحة وإنما هو مضمر في كلامهم؛ سواء أرادوه، أو لم يريدوه لأني على يقين من أن أهل العلم الصادقين مَنَحهم الله سبحانه وتعالى لقانة هي من وراء علمهم الذي استخرجوه، وهي إرْهَاصٌ بعلم آخر لم يَسْتَخْرجُوه وما تلبث هذه اللقانة أو هذا الإرهاصُ أن يُثير في عقل من كان على طريقهم في الصدق والإخلاص، ثم تخرج هذه اللقانة أو هذه المعلومة اللدنية المطوية في علمهم ثم تصير فكرة جديدة ثم يكون وراءها فكرة مطويةٌ وهكذا نجد كلام الراسخين في العلوم كنوزًا ومناجم يَفْتح بعضها الباب لبعض، وهذا هو سبيل نمو المعرفة، وازدهارها، وزهوها أيضًا حين يتولد بعضها من بعض، ويفتح أولُّها الباب لثانيها ومن ورائها عقول لا تَنِي وعزائمُ لا تَنِي، وهذا شيء وترديد الببغاوات شيء آخر، وهذا هو الذي أفهمه من كلام المُزَنيِ لما قال إنه قرأ رسالة الشافعي خمسمائة مرة وكان في كل مرة يفهم شيئًا لم يفهمه في المرة قبلها، ولا أتصور أن الذي كان يفهمه المزنى في كل مرة هو ما ذكره الشافعي، وإنما هو المضمر في طي ما قاله الشافعي أو هو تحت الذي قاله الشافعي وأن كلام الشافعي الملهم كان وراءه منادح بعيدة، وكلما قطع الجَرْميُّ طريقا وجد هناك الوديعة التي لا تُردُّ يد العالم صفرا منها؛ لأنه بهذا التكرار يمد يده إلى الله والله سبحانه وتعالى لا يرد يدًا مدّها أحد إليه حتى يضع فيها خيرًا.

كتب محمود محمد شاكر قصيدة عدد أبياتها مائتان وتسعون بيتا مستلهما ثلاثة وعشرين بيتا للشماخ بن ضرار، وصَّاف الحمُرَ، وأبيات الشماخ هذه كانت تحكي قصة قواس يعيش من صناعة الأقواس وأنه صنع قوسًا وأجاد صناعتها، وذكر الشماخ قصته مع القوس من أول أن وقعت عينه على فرع ضالة «لها شذب من دونها وحواجر» والشذب الأغصان المتفرقة المتهدلة، أراد أنها بعيدة والطريق إليها غير مسلوك وصور

الشماخ كل خطوات هذه النَّبعة وكيف جوَّد القواسُ صناعتها وكيف حماها، إلى أن ذهب بها إلى الأسواق فانبرى لها بيِّع «بُحْسِنُ السَّوْمَ فقال له القواس:

هل تشتريها فإنها ... تباعُ بما بيع التِّلادُ الحرائر

فقال إزارٌ شَرْعَبىٌّ وأربَعٌ ... من السِّيراءِ أو أواق نواجزُ

ثمان من الكورِيِّ حُمْرٌ كأنها ... مِنَ الجَمْرِ مَا أذْكى على النار خَابِزُ

وبُرْدَانِ من حَالٍ وتسعون دِرْهمًا ... على ذاك مَقْرُوظٌ من الجلْد مَاعِزُ

هذا هو الثمن الذي عرضه الذي يحسن السَّوْم والإزار الشرعبي من أحسن الثياب، والسيراء ثياب مخططة نفيسة، والأواقي جَمْع أُوقيْة ميزان معروف، ونواجز حاضرة، والكوريّ منسوبٌ إلى كُورِ الصَّائغ، وأراد ثماني أواق من ذهب، والمقروظ الجلد المدبوغ، ولما سمع القواس هذا الثمن لم يُغْرِه بالبَيْع لأن قوسه التي أخلص في صناعتها كانت أحبَّ إليه من هذا الذهب، مع أنه كما قال الشماخ قليل التلاد لا يَمْلِكُ إلا القوس وسهامها، وناداه الناس من حوله بَايِعْ أخاك.

«فلما شراها فاضت العينُ عَبْرَةٍ وفي النَّفْسِ حَزّازَ من الوَجْد حامز».

ومن هذا كانت القوس العذراء التي فتح باب معانيها حِوَارٌ جَرَى بين الأستاذ محمود شاكر وصاحب له في شأن إتقان العمل واستحضر شاكر قصة هذا القواس وعَدَدُ أبياتها كما قلت ثلاثة وعشرون بيتا. استخرج منها المرحوم محمود شاكر مائتين وتسعين بيتا وعالج فى هذه الرسالة قضية من أحدث قضايانا وهي العلم والفن وأن فطرة الإنسان الولوعة بإتقان العمل تَجْعَلُ الصّنْعة لا تخرج من يد الصانع إلا وهي مطوية على حشاشة من سر نفسه، موسومة بلوعة متضرِّمة على صَبْوَة قَنِيَت في عشرته، ومعاناته، وهذا كلام الشيخ، ثم قال «والعَمَلُ كما ترى هو في إرْث طبيعته فَنٌّ مُتمكّنٌ والإنسان بسليقة فطرته فنَّانٌ مُعْرِقٌ» وهذه أدق وأكرم ما يستخلص من حكاية إتقان العمل، ثم قال الشيخ لصاحبه وإنى لمحدثك

الآن عن رجل من عرض البشر يتعيش بكـد يديه ثم ذكر قصة القواس التي ذكرها الشماخ وذكر قصيدته التي ليس فيـها كلمة إلا وهي راجعة إلى معنى أو إشارة في كلام الشماخ، والشماخ كما قلت وصّاف الحمر وهو معروف في ذلك، ولم تكن حكاية القواس من أصول معاني القصيـدة، وإنما كانت فرعًا من فروعها لأن أصل معنى القـصيدة هو العير الحكيـم الأريب الرائع الذي قاد أتنه أو عشيـرته أو قوْمه وقطع بهم المسافـات المليئـة بالمعاطب والمهالك، والذي كـان بحيلتـه وذكائه ونُبْله وإخلاصه وحُبّه لقومه يتفادى بهم كل هذه المعاطب، وكان يَرْتَحِلُ معهم باحثًا عن الرِّيّ وما أروع هذه الرحلات التي يزخر بها الشعر الجاهلي وهي باحثة عن الريِّ. ونرى في كل قـصيد ظمـأ حارقـا يبحث عن منابع الماء، وهذه وحـدها من أرْفَع وأعْظم قِيمَ هذا الشـعر الجاهلـي، والويل لنا وللشعر إذا وقـفنا به عند هذا المعنى القريب، وهو أن الحـمار ظامئ، والأتنّ ظمأى، وأن الحـمار والأتن يبحـثون عن الماء لأن الحقـيقة ليست كـذلك وإنما هي أن كل حَيٍّ على هذه الأرض باحث عن الري، وأن كل حَيٍّ على هذه الأرض ظامئ، يعنى مشتاقٌ ومُـتَّطَلْعُ ومُسْتَشْرف لما هو أفضل سواء في العلم أو في الفكر أو في السياسـة أو فيما شئت والمروِيُّ على هذا الكوكب الذي لا يَشْعُـر بالظمأ هو الهمل الذى لا تَعْمـرُ به الأرض ولا تتقدم به الحياة خطوة.

وقراءة المرحـوم محمـود شاكر لأبيات الشـماخ مثـال جيد لقـراءة اللاحق عمل السابق، وأهم ما بُنـيتْ عليه هذه القراءة هو أن تمثل اللاحق عمل السـابق،وحضور تراث السـابق في عقل اللاحق هو الذي قـارب الربط بين حديث المرحـوم محـمود شاكر وصاحبه في إتقان العمل وبين حكاية قواس الشماخ ولولا حضور هذا القواس لما كانت قصيدة القوس العذراء وإنما كانـت في ذاكرة المرحوم شاكر واستدعاها فكان هذا العطاء، وهذه قيمة حضور التراث وحيـاته وحَيَوِيَّته في عقل أجيال الأمة، وفي الوقت نفسه خطر غـيابه في ثقافة الأمـة كما يحدث الآن، جيل يفـقد ذاكرته ويملأ عيبته بتاريخ عدوه، هذا العمل الجليل من الأستاذ محمود شاكر وهذه القراءة البارعة لمخزون الأمة من الـشعر والأدب والعلم أيضًا، هو غـريب وجليل في زماننا مع أننا

لو رجعنا إلى الأمة في زمن عافيتها لوجدنا هذه التجربة الرائعة مفردة من مفردات كثيرة لتجارب كثيرة وربما كانت متواضعة بالنسبة إلى كثير منها، ولا يغيب عني تجربتان رائعتان إلى حد الدهشة لأنهما أنتجتا علمين جليلين من أصل واحد.

الأولى تجربة أبي الفتح ابن جني الذي أنتج علم خصائص العربية وهو علم لا يبحث في النحو ولا في الصرف وإنما يبحث فيما بُنِيَتْ عليه اللغة من الدقة والحكمة في أصولها النحوية والصرفية، وهذا العلم الذي لم يواصل أحد نموّ كثير من أبوابه كما قال المرحوم محمد على النجار وهو يريد باب «تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني» إنما استخرجه أبو الفتح من كلام الشيخين الخليل وسيبويه مضيفا إليهما كلام شيخه أبي على، والتجربة الثانية هي تجربة عبد القاهر الجرجاني الذي استخرج من هذا الحقل نفسه أعنى علم الخليل وسيبويه وأبي على أيضًا مضيفا إليهم علم الجاحظ علمًا جديداً من أجل علوم العربية وهو علم دلائل الإعجاز الذي سُمّى فيما بعد علم المعاني الذي هو أصل علوم البلاغة الثلاثة، وكان المرحوم محمود شاكر شديد الحفاوة بعبد القاهر حتى أنه قال عنه إنه لم يستخرج علم بلاغة اللسان العربي فحسب وإنما استخرج علم بلاغة اللسان البشري، ولا تستغرب لأن إعجاز القرآن إعجاز للناس كافة وليس للعرب وحدهم لعموم الرسالة، والذي جعل هاتين التجربتين عالقتين في نفسي هو أن الجذر واحد وهو علم النحو وأن العلمين الجليلين اللذين استُخرجا منه علمان مختلفان، كل له وادٍ يتكلم فيه؛ فعلم أبي الفتح يكلمك في الحكمة والدقة واللطف واضطراد المنطق في بناء هذه العربية الشريفة وقد كان ذلك يعظم في نفس أبي الفتح المعتزلي حتى يذهب إلى أن هذه العربية توقيف من الله وليست صناعة العرب. وعلم عبد القاهر يكلمك في وجوه تفاضل الكلام وكيف يعلو مرقبا من بعد مرقب حتى يصل إلى الحد الذي تنقطع عنده الأطماع وتُقْهَرُ القوى والقدر وهذه كلمته، ودراسة نشأة العلوم لها أكبر أثر في استنفار واستفزاز عقول الناشئين من الباحثين حتى يستشرفوا إلى إنتاج معرفة وأن إنتاج المعرفة ليس أمرًا مستحيلاً وأنهم أحفاد علماء بنوا وأنتجوا وهذا يدفعهم إلى رفض أن يعيشوا مُسْتَهْلِكين لمعرفة الآخرين كما تدعوهم التيارات المسيطرة على الساحة والتي من ورائها أنظمة جاهلة خاملة

استراحت واستنامت وبثت الخمول فيمن حولها وألف الكل أن يعيش تحت سقف هَيْمَنَة العدو الألد.

وبقي أن أختم هذه المقدمة بأبيات محمود حسن إسماعيل، وهذه الأبيات تحتاج إلى قراءة دقيقة ومتميزة لأنها نفذت إلى لب هذه التجربة وكيف نفذ محمود شاكر إلى سر هذه القوس وكيف أسكنها «نَائِيًا بعيدَ المدى» وكيف استحالت إلى سحر نزل، وكان محمود شاكر وصف شعر الشماخ في بعض أبيات كتبها بعد ما قدّم الذي قدّم ثم قال «فاسمع إذن صدى صوت الشماخ» ثم قال:

تَجَاوَبَ عَنْه كُهُوفُ القُرون ... تردّدَ فيها كأن لم يَزَلْ

وأوفى على القِمَم الشامخاتِ ... جِبَالٌ من الشّعر منها اسْتَهلّ

تحدَّرُ أنغامُه المرسلاتُ ... أنغامَ سَيْلٍ طغى واحْتَفَلْ

ثم قال في وصف نفاذ الشماخ إلى «مُستَسَرّ ما في نفوس الحُمُر» والشماخ موصوف بذلك ومشهور به حتى إن الوليد بن عبد الملك لما سمع بعض شعره قال: «إني لأحسب أن أحد أبويه كان حمارا» قال المرحوم شاكر:

فكيف تدسّسَ هذا البيانُ ... حتى رأى بعيون الحُمُر

وكيف تَغَلْغَلَ هذا اللسانُ ... وبيّنَ عن راجفاتِ الحَذَر

ذكرت ذلك لبيان أن كل ما جاء في القوس العذراء ليس مستخرجا من أبواب المعاني العالية كالمديح والفخر وإنما هو مستمد من شعر في قصة الحُمرُ فكيف لو اتجه قلم آخر إلى نُبْل مكارم هرم بن سنان والحارث بن عوف في معلقة زهير أو إلى مراثي أوْس لفضالة وتغلغل في مكارم الأخلاق التي كان يُحدّث عنها زهير أو أوس، والشعر الذي تجاوبت عنه كهوف القرون وأنه تردَّدَ في هذه الكهوف كأنه قيل اليوم وأنه ارتفع على قمم الشعر الشامخات وأنه استهل من جبال الشعر وأن أنغامه المرسلات تتحدر كأنه سَيْل طغى هو الشعر الذي تدسّس حتى رأى بعيون الحُمُر، وأنه الشعر الذي تغلغل في نفوس هذه الحمر حتى أبان

عن راجفات الحذر، وهو الشعر الذي استخرج منه شاكر ما استخرج وكل هذا يؤكد ضرورة البحث عن المعاني المترامية المتسعة وراء ظواهر هذا الشعر فليس في ضمير الخمر شيء عن علاقة العلم بالفن.

قال محمود حسن إسماعيل رحمه الله:

مِنْ قبل أن تُخْلَق في غُصْنها	والدهرُ يَرْوي سِرّها للأزَل
وقبل أن يَنْسابَ في عودها	تحت النَّدى الحيّ حَصادُ الأجَلْ
سكَنْتَهَا نايًا عميقَ المدَى	يَسْقي الصَّدى من نبضه المُشْتعِلْ
في الريح أسمعت اللحاءَ الهَوى	يَنُوح في الأدْغال نَوْح الثَّمِلْ
وفي يد القواسِ كُنْتَ الأسَى	تنادَمَتَ فيه بقَايا أمَلْ
وفي يد الرامي رَدًى طائرا	يرْتَادُ عنها كلَّ صَيْدٍ غَفَلْ
وفي ضمير الوحش أنزلتها	مَنَازل الوَحْي بخطو الرُّسُلْ
أنْبَتَّهَا غُصنًا وأنطقتَها	لحْنًا جريحَ السِّحْر أنَّى هَدَلْ
على رباب مَلْحَميٍّ عَلَى	أوْتَارِه سِحْرٌ جديدٌ أطلْ
يَهْفو ويَزْوَرُّ ويُوحي الصَّدَى	للصوت.. والنورَ لومْضٍ أفَلْ
يَنْهتكُ الأسْدال عن قصَّةٍ	فيها لتيه النفس أشْقَى مَثَلْ
غَنَّيتها فانْسَعَرتْ عالما	من نَغْمةٍ في دَنّها لم تَزَلْ
ذوبّتها نورًا.. وشَعْشَعْتَها	عذراء في خُلْدٍ ضحاه أهَلْ
تَسْقِي بكفٍّ ما يشاء الهوى	وأختها تَسْقِي رحيق الأملْ
كَاسَانِ في ناي.. عَصَرْتَ الصِّبا	في لَحْنِه ذِكْرَى زمانٍ رَحَلْ
ماضٍ وآتٍ.. ومدى أومضَتْ	فيه لأنغامك أزكى شُعَلْ
ما هي قوسٌ في يدي نابلٍ	وإنما ألواحُ سحر نزلْ

اقرأ هذه الأبيات قـراءة جيدة واقرأ أصلهـا وَحَدَثَهَا قراءة جيـدة وقـل مـا أقوله وما أسعـى إليه يجب أن يتحول شـعرنا بعقولنا إلى ألواح سـحر نزل، ويجب أن تتحول بلاغتنا بـعقولنا إلى ألواح سحر نزل، ويجب أن يتحول نقـدنا بعقولنا إلى ألواح سحر نزل، وهكذا قل في الفـقه والأصول والتفسيـر والحديث وهذا التراث المتسع القـابل كله إلى هذا التحوّل وأن مـحمود شـاكر رجل منا وقد حوّل قـصة قواس يصيد الحمر ويـرمي «حيث تُكْوى النواجز» إلى ألواح سحر نزل، وهذا هو البناء وهذا هو التقـدم وهذا هو التنوير والتحديث وليس الركض الخـاسر الخائب في إنفاذ مشروع سياسي أعدته المسيحية المتـصهينة وتحميه أنظمة تعيش تحت حماية هذه المسيحية المتصهينة، وتعادي النهـضة الإسلامية الحقة وتدفع الفجر الصادق إلى الوراء وتقدم الفجر الكاذب، وليس لها هم إلا أن تحكم ويحكم أبناؤها من بعدها وقد ازدهر زمن التـوريث حتى طمع فيـه الشويشيـة والأنباشيـة وإن كان هذا بدأ ينحسر وأدارت الشعوب التي تحررت من حكم بقـايا أحفاد مسيلمة الكذاب ظهرها إلى التغريب وتشبثت بهويتها العـربية الإسلامية وسيمتد هذا لأنه هو الأصل وكل الشعوب الآن تريد ذلك ومنها من ينطق، ومنها من لا ينطق، هذا والله أعلم.

مكة المكرمة ٣ من صفر ١٤٣٣هـ

الموافق ٢٨ من ديسمبر ٢٠١١م

دكتور

محمد محمد أبو موسى

●●●

اقرأ هذه الأبيات قـراءة جيدة واقرأ أصلهـا وَحَدَثَها قراءة جيـدة وقـل مـا أقوله وما أسعـى إليه يجب أن يتحول شـعرنا بعقولنا إلى ألواح سـحر نزل، ويجب أن تتحول بلاغتنا بـعقولنا إلى ألواح سحر نزل، ويجب أن يتحول نقـدنا بعقولنا إلى ألواح سحر نزل، وهكذا قل في الفـقه والأصول والتفسيـر والحديث وهذا التراث المتسع القـابل كله إلى هذا التحوّل وأن مـحمود شـاكر رجل منا وقد حوّل قـصة قواس يصيد الحمر ويـرمي «حيث تُكْوى النواجز» إلى ألواح سحر نزل، وهذا هو البناء وهذا هو التقـدم وهذا هو التنوير والتحديث وليس الركض الخـاسر الخائب في إنفاذ مشروع سياسي أعدته المسيحية المتـصهينة وتحميه أنظمة تعيش تحت حماية هذه المسيحية المتصهينة، وتعادي النهـضة الإسلامية الحقة وتدفع الفجر الصادق إلى الوراء وتقدم الفجر الكاذب، وليس لها هم إلا أن تحكم ويحكم أبناؤها من بعدها وقد ازدهر زمن التـوريث حتى طمع فيـه الشويشيـة والأنباشيـة وإن كان هذا بدأ ينحسر وأدارت الشعوب التي تحررت من حكم بقـايا أحفاد مسيلمة الكذاب ظهرها إلى التغريب وتشبثت بهويتها العـربية الإسلامية وسيمتد هذا لأنه هو الأصل وكل الشعوب الآن تريد ذلك ومنها من ينطق، ومنها من لا ينطق، هذا والله أعلم.

مكة المكرمة ٣ من صفر ١٤٣٣هـ

الموافق ٢٨ من ديسمبر ٢٠١١م

دكتور

محمد محمد أبو موسى

●●●

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى
فى دراسة الشعر الجاهلى

اللهم ارزقنا حب الصدق وحسن السعى إليه، وارزقنا حسن الفهم والقدرة على أن نقول ما نراه صوابًا وإن خالف الناس، والقدرة على أن ننظر إليك وحدك لا نشرك بك أحدًا من خلقك، لأنك أنت وحدك الذى تثيب المخطئَ إذا قصد الصواب وسعى إليه ولم يدركه.

اللهم لا ألقاك وقد قعدت عن نُصْرة حق وأنا مستطيع ذلك، ولا ألقاك وقد التبس علىَّ الحق بالباطل، اللهم إنى أبرأ إليك وأشكو إليك ما يجرى حولى من تغييب علوم أهل الإسلام التى هى مفاتيح فهم كلامك وكلام رسولك محمد ﷺ وتسمية هذا التغييب والدَّفْن فى التراب تنويرًا وتجديدًا ومشاريع نهضة.

سبحانك إنك من تهدى فلا مضل له، ومن تضلّ فلا هادى له، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان.

وبعد

فإن هناك حقيقة تاريخية يجب أن تكتب فى مقدمة أى دراسة للشعر الجاهلى حتى لا تضيع فى عجيج وضجيج حركة الكذب والباطل والتلفيق التى تسمى حركة التنوير والتحديث، هذه الحقيقة هى إجماع أهل العلم بالشعر من علماء الأمة على أن شعر الجاهلية وبيان العربية فى عصر المبعث قد بلغ ذروة ما يمكن أن يصل إليه البيان الإنسانى، وأن شعر هذا العصر الذى نسمِّيه العصر الجاهلى هو

الأصل والرافد للشعر العربى فى العصور التى تَلَتْ الجاهلية إلى يومنا هذا، وأن من يحسن فهم الشعر ويصبر على مراجعته لا يتردد فى القطع بأن شعر الجاهلية هو أصفى شعر العربية وأسخاه وأسراه، وأنه لا يلتبس بالشعر الذى جاء بعده لأن له ميسمًا يدل عليه، وهذا الميسم ظاهر ويمكن الدلالة عليه ووضع اليد عليه، ويؤكد هذا الذى يجده دارس هذا الشعر أن التحدى بالإعجاز البيانى لكتاب الله المنزَّل كان موجهًا إلى هذا الشعر، يستوى فى ذلك شعر زمن المبعث كشعر زهير والنابغة والأعشى والشعر الذى سبق زمن المبعث كشعر طرفة وامرئ القيس وعبيد وأوس. لأن التحدى كان أن يأتوا هم بمثله من كلامهم أو مما يحفظونه فى صدورهم من كلام من سبقوهم، وقد أجمع أهل العلم بالبيان والشعر أن عجز هذا الجيل حجةٌ على عجز من يأتى بعدهم من العرب وغير العرب، إلى أن يُنْفَخَ فى الصور، ولا يجوز فى العقل أن يكون عجزهم حجة على غيرهم ما لم يكونوا قد تَفرَّدوا فى هذا الباب واستولوا على الأمد فيه، وأنه لن يأتى بعدهم من ينازعهم. ثم إن الله جلّت حكمته وهو العليم الخبير بأحوال خلقه أخبر بأن عجز الذين خوطبوا بالقرآن يوجب علينا العلم بأنه كلام الله الذى لا يستطيعه البَشَرُ فى أى زمان ولا فى أى مكان وذلك فى قوله سبحانه فى سورة هود ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ**﴾ [هود: ١٤] وترتيب وجوب العلم بأنه كلام الله على عجزهم دليلٌ ظاهر وقاطع بأنه لن يأتى من هم أقدر منهم فى هذا الباب، وأنه مادام عَجَزَ هؤلاء فلن يأتى بعدهم من يقدر على ذلك، وهذا هو المطابق لقوله سبحانه فى سورة البقرة ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ**﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] موضع الشاهد قوله «ولن تفعلوا» وترتيب الأمر باتقاء النار على العجز كترتيب العلم بأنه أنزل بعلم الله على عدم الاستجابة، وهذا أيضًا هو المطابق لآيات كثيرة فى القرآن الكريم.

وللعلامة المرحوم محمود محمد شاكر كلام مبسوط فى هذا وقد أَثْبَتُّهُ بتمامه فى كتاب مراجعات فى أصول الدرس البلاغى(١).

ويقتضى العقل أن يتبع هذا ولا يتخلف عنه الاعتقادُ بأن هذا الجيل أقدر أجيالنا على معرفة طبقات الكلام ومعرفة الشىء النبيل الرائع الغامض المختبئ الذى به يفضل كلام كلامًا، وإن كانوا لم يتركوا لنا كلامًا لا فى علم صناعة الشعر وإنتاجه ولا فى علم نقد الشعر ومعرفة طبقاته، وإنما تركوا لنا الشعر وحده وفيه ما يكفى، وعلينا أن نستخرج منه علم صناعته، ونقده، وأن نستخرج منه الأصول النقدية التى سكنت فى صدور من أنتجوه، ولو قلت إن شعر كل شاعر يتضمن فى طرائق صنعته رؤية صاحبه لأصول نقد الكلام، لم تكن بعيدًا عن الصواب وقد عبّد لنا علماؤنا طريق استنباط أصول نقد الشعر من الشعر نفسه وراجع ما شئت من كتب نقد الشعر، من الموازنة والوساطة والصناعتين وعيار الشعر وغير ذلك تجد أن مادة هذه الكتب مستخرجة من الشعر، وقد تستطيع بالصبر والانقطاع أن تدرك الشاعر الذى كانت عين المؤلف تدور فى شعره، وهو يكتب هذا الباب أو ذاك، وأنا لا أكتب لك إلا ما وضعت يدى على مثله، ثم إن علماء نقد الشعر وصناعته لما رجعوا إلى الشعر لاستخراج علمهم لم يكونوا بدعا فى ذلك، وإنما شق هذا الطريق قبلهم النحاةُ الذين كانت صحائفهم بيضاء وإنما كتبوها من النظر فى الشعر وما نطق به العرب لا غير، ثم إن علماء الشعر لم يتركوا هذا لنَسْتَنْبِطَهُ وإنما أشاروا إلى مصادرهم وأن هذه المصادر هى تتبع كلام العرب أو تتبع خواص تراكيب كلام العرب، وظل الحال كذلك فى الزمن بعد الزمن حتى رأينا ابن أبى الإصبع يستدرك على علماء الشعر أبوابًا يستخرجها من الشعر مما سماه العلماء البديع، وهو جزء أساسى فى صناعة الشعر وقيمة من قيمه.

ولا شك أن هناك من كان يكتفى بما استخرجه الناس قبله ويقوم على تلخيصه أو تحريره، وهؤلاء هم المعلمون الذين كانوا يُعدِّون المادة العلمية للناشئة. أما

---

(١) مكتبة وهبة ط. أولى ٢٠٠٥.

العلماء الكبار فكانت عيونهم تتجول فيما استخرجه من سبقوهم، ثم تتجول فى الشعر لتبحث فيه عن أصل من أصوله لم تقع عليه عيون من سبقوهم كما فعل ابن أبى الإصبع.

ويا ليت هذا الطريق كان قد استمر إلى زماننا وإلى ما بعد زماننا لأنه يقوم على حقيقة قوية وهى أن الشعر المتميز هو الذى يتضمن أصول نقده، ومناهج درسه، لأننا حين نفعل ذلك نكون قد درسنا الشعر من داخل الشعر نفسه ولم نفرض عليه شيئًا من خارجه.

وقد واجهتنى مبهمات فى الشعر ولم أجد مدخلاً لبيانها إلا الشعر نفسه لأن فيه مفاتيح غوامضه، والمشكلة أن البحث فى هذا الجانب فى الشعر بحث فى خفايا لا تظهر إلا بعد طول المراجعة والشعر يعطيك القليل بعدما تعطيه الكثير.

وقد وجدت فى كلام حازم القرطاجنى ما يؤكد أن ما استخرجه علماؤنا من الشعر من أصول نقده وبلاغته هو نفسه الذى كان فى صدور أهله، وكانوا يحفظون هذه الأصول، ويتعهدون ملكاتهم بالصَّقل كما كانوا يتعهدون ألسنتهم بالتقويم، وكان يستدرك بعضهم على بعض فى ضوء هذه الأصول المسلمة من الكافة، وأن الرواة قد نقلوا لنا هذه الأصول وهى مفرقة فى الكتب وأن من عنده مكتبة مستوعبة يستطيع أن يستخرج منها هذه الأصول المفرقة، وأنها هى الأصول البلاغية التى ندرسها، هذا ملخص من كلام حازم ومعناه الصريح أن علماءنا قد استخرجوا من شعر الجاهلية كثيرًا من أصولهم فى نقد الكلام وتمييزه، وبقى فيه من السخاء والعطاء ما يمد كل صاحب نظر، وصاحب قدرة على الاستخراج والاستنباط، لأن الكلام العالى لا ينقطع عطاؤه، وإذا لم تقع منه على شىء خفىٍّ أثار فى نفسك فكرة نافعة. قلت إن النظر فى الشعر وفيما استخرجه العلماء منه من أصول نقده كان هو السبيل الذى سلكه علماؤنا فى نقد الشعر، وطرائق تحليله، وكان هو أيضًا السبيل إلى تنامى هذا الفرع من فروع المعرفة، وتراكم مادته

العلميــة وتفاعلهــا وحوارها، وكان يجب أن يســتمر هذا الطـريق، ولكن حدثت انعطافة صــارخة فى خط ســير الحركـة العلميــة فى هذا الباب، وفى غـيره، هذه الانعطافة تشــبه الزلزال الذى أصاب ثقافـة الأمة بالصدع الذى تكلم عنه الأســتاذ محــمود شــاكر رحــمه الله وهو القول بــأن ما فى كتب عــلم الشعر ونقــده ليس مستخلصًا من الشعر، وإنما هو من علم اليونان، وقد راج هذا القول رواجًا شديداً جداً، وقد ساعد على رواجه ضعف الـصلة بين الجيل وعلوم أمتهم، وبلغ التشيع لهذا القول مبلغًا مذهلاً حتى رأيت من الذين يحسن الناس الظن بهم من يحتالون لإثبات هــذا بكلام ينقضــه العقل والنقل مــعًا، وفى هذا الســياق تجد كــذبًا على التاريخ وكذبًا على العلماء، واتهــامًا لهم بأنهم أخذوا علوم اليونان وتواطؤوا على الكتمــان، والكذب، وغيــر ذلك مما لم يكتبــه اليهــود فى علومنا ولا فى تاريخنا لأنهم أعنى اليهــود يحرصون على أن يظل لكتــابتهم غطاء من الأخلاق ومنهجــية البــحث حتى يروج عنهم مــا يريدون. وإخــواننا فى هذا الباب تجــاوزوا كل غطاء وروّجوا ورُوِّج لهم وكان ضعف الجيل وجهله بتاريخ أمته مما ساعد على رواج كل هذه الأكاذيب.

والمهم أننا لم نعد نرجع إلى الشعر لنتعلم منه طرائق درسه وتحليله ونستنبط منه مــذاهب من صنعــوه وهو الطريق القــويم الذى كان عــليه علمــاء الأمــة ولو بقى مسلوكًا لكان لنا منه خير كثـير، وإنما اتجهنا إلى من اتجه إليهم آباؤنا بناء على هذه الأكاذيب التى لا تزال مــتجذِّرة فى حــياتنا الفكرية وغيــبّنا علومنا فى نقد الشــعر وتحليله وأحضرنا علوم غيرنا ودخلنا بها على الشعر الجاهلى وكان ما كان وانتقلت الرحا من مكانها الطبيعى ودارت على طحين آخر وتدفقت علوم الآخرين، وغُيِّبت علومنا، وصــار نقل الفكر هو الطريق، وتنوعت صــور هذا النقل وألفنا التــبيــعة والتقليد وأُبعدت عن الساحة روح الاجتهاد، وكان تغييب الاجتهاد من أخطر نتائج هذا البلاء، والمجــتهدون ليســوا هم الفقهــاء وحدهم وإنما الاجتهــاد فى كل فروع المعرفة يستوى فــيه اجتهاد الفقيه واجــتهاد عالم الفيزيا، وقيمــة الأمة مؤسسة على

اجتهاد علمائها وعطائهم، ولا يكون الاجتهاد إلا بملابسة العقول المتميزة بأصول المعرفة والصبر على مدارستها ومراجعتها ومناقشتها، والمعرفة لا شك تتوهج بتوهج العقول التى تلابسها وتنطفئ بانطفاء العقول التى تلابسها، وهذا التوهج هو الذى يحوّل علومنا إلى تربة خصبة تنبت معرفة جديدة وأفكارًا جديدة. والباحث الصادق المنقطع الذى يلابس بابًا من أبواب العلم بيقظة وفهم وصدق وصبر إذا لم يستخرج من هذه المعرفة فكرًا جديدًا استخرجت هى منه فكرًا جديدًا، لأنه يلابسها بكل خواطره، فإذا لم تستخرج خواطره الحية المتوقدة منها فكرًا ألهمت هى هذه الخواطر فكرًا، وكما أن الأمة إذا تركت الجهاد ذلت هى أيضًا إذا تركت الاجتهاد غابت.

قلت إن هذا التحوّل الخطير فى حياة الأمة العقلية أدخلها فى خسيسة التبعية والتقليد وهذا بلاء، وأنكى منه وأبشع أن تنتكس الحقائق فيسمى هذا التقليد المذل تنويرًا وتجديدًا وتحديثًا، وأن يربى الجيل على ذلك وأبشع من كل هذا أن تقوم مؤسساتنا الفكرية، ومجالسنا الثقافية ومجلاتنا وأنديتنا فضلاً عن مناهجنا فى جامعاتنا يقوم كل ذلك على تثبيت وتأكيد هذا الأمر البشع، ويؤكد أنه تنوير وتحديث، ويُدْفُع الجيلُ دفعًا فى هذا الاتجاه لا يعرف غيره، وتُغَيَّبُ روح الاجتهاد عن الجيل كما تغيب عنه علوم أمته التى توصف بأنها قديمة وتقليدية فينصرف هو عنها إلى ما يسميه الكافة من الأساتذة الذين يأخذ عنهم وغيرهم من المشتغلين بالفكر والأدب تنويرًا وتجديدًا، وكأننا دخلنا فى التّيه، وافتقد الجيل أى علامة تهديه إلى ما يجب أن يكون عليه. وأخْتِمُ الحديث فى هذا البلاء بكلمة قالها الأستاذ المرحوم محمود شاكر فى هذا الشأن، وكان الأستاذ المرحوم فتحى رضوان يصف الأستاذ محمود شاكر بأنه ديدبان يقف على ثغور الأمة الفكرية يدفع عن الحياة العقلية كروبها التى هى أشد فتكًا بها من جيوش عدوها.

قال الأستاذ شاكر رحمه الله فى آخر ما كتبه عن ما سماه فساد حياتنا الأدبية وبعدما وصف خطر هذا الصدع فى حياة الأمة:

«أما الآن فإنى أتلفت إلى الأيام الغابرة البعيدة حين كنت أُشْفِقُ من مغبّة السُّنَن التى سنّها لنا الأساتذة الكبار، كسُنّة تلخيص أفكار عالم آخر، ويقضى أحدهم عمره فى هذا التلخيص دون أن يشعر بأنه محفوف بالأخطار ودون أن يستنكف أن ينسُبه إلى نفسه نسبة تجعله عند الناس كاتبًا ومؤلفًا وصاحب فكر، هذا ضَرب من التدليس كريه، ومع ذلك فهو أهون من «السطو» المجرّد حين يعمد الساطى إلى ما سطا عليه فيأخذه، فيمزقه ثم يفرقه ويغرقه فى ثرثرة طاغية ليُخفى معالم ما سطا عليه، وليصبح عند الناس صاحب فكر ورأى ومذهب يُعرف به وينسب كل فضله إليه، ومع ذلك فهو أيضًا أهون من «الاستخفاف» بتراث كامل بلا سبب، وبلا بحث وبلا نظر، ثم دعوة من يعلمون علمًا جازمًا أنه غير مطيق لما أطاقوا إلى الاستخفاف به كما استخفوا، ومع ذلك أيضًا فهذا مما فعلوه وسنوه من سنة «الإرهاب الثقافى» الذى جعل ألفاظ «القديم» و«الجديد» و«التقليد» و«التجديد» و«التخلف» و«التقدم» و«الجمود» و«التحرر» و«ثقافة الماضى» و«ثقافة العصر» سياطًا ملهبة بعضها سياط حث وتخويف لمن أطاع وأتى وبعضها سياط عذاب لمن خالف وأبى.

أتلفت اليوم إلى ما أشفقت منه قديمًا من فعل الأساتذة الكبار! لقد ذهبوا بعد أن تركوا من حيث أرادوا أو لم يريدوا حياة أدبية وثقافية قد فسدت فسادًا وبيلاً على مدى نصف قرن، وتجددت الأساليب وتنوعت وصار «السطو» على أعمال الناس أمرًا مألوفًا غير مستنكر يمشى فى الناس طليقًا عليه طيلسان «البحث العلمى» و«عالمية الثقافة» و«الثقافة الإنسانية» وإن لم يكن محصوله إلا ترديدًا لقضايا غريبة صاغها غرباء صياغة مطابقة لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كل قضية، واختلط الحابل بالنابل، قل ذلك فى الأدب والفلسفة والتاريخ والفن أو ما شئت فإنه صادق صدقًا لا يتخلف. فالأديب مصوّر بقلم غيره والفيلسوف منا مفكر بعقل سواه، والمؤرخ منا ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه، والفنان منا نابض قلبه بنبض أجنبى عن تراث فنه. انتهى كلامه رحمه الله (كتاب المتنبى ص ١٦٧) ومن المفيد جداً أن تراجع هذا الكلام مرة ومرة.

وأعود إلى الشعر الجاهلى بعد هذا الاستطراد الواجب وأقول:

ومن طرائق الشعر الجاهلى التى لم نوفها حقها من الدرس أن الشاعر ينشئ القصيدة فى المديح أو فى الهجاء، ويبدأ بذكر الصاحبة والديار والرحلة والناقة ويطيل الكلام فى ذلك ثم لا تجد الهجاء أو المديح إلا فى أبيات قليلة فى آخر القصيدة وقد تكون ثلاثة أو أربعة أبيات، وقد وقفت كثيراً عند هذا اللون، وأنا لا أستسيغ القول بأن كل هذه الأبيات مقدمة لهذه الأبيات القليلة، ولم أجد فى دراسة الشعر ما يعين على ذلك لا فى كلام القدماء ولا فى كلام المعاصرين مع كثرة الدراسات المعاصرة للشعر الجاهلى وتدويره على كل منهج نقدى ينقل إلينا من العالم الآخر ولم أجد أمامى إلا الشعر فراجعته وطالت المرجعة وأنا على يقين أن الشعر يتضمن مفاتيح فهمه، وأنه يفسر بعضه بعضًا ويضىء بعضه بعضًا، وقد رأيت الشاعر يضمر غرضه فى كل ما قاله مما نسمّيه تسامحًا مقدمة، وأن حديث الصاحبة والديار والرحلة والناقة كل ذلك بمثابة المنوال الذى ينسج الشاعر عليه غرضه ببراعة ويقظة ولطف حيلة، وأن كل كلمة وكل تركيب وكل صورة وكل حدث وكل حركة من أى حيوان أو التفاته كل ذلك من صميم الغرض، حتى إنه خُيِّل إلىّ أن الصاحبة والديار والرحلة والناقة والوحش وغير ذلك مما نراه يتكرر فى الشعر كل ذلك من طرق الإبانة فى الشعر كالتشبيه والمجاز والحذف والتقديم، وإنما هى تختلف عن الطرق اللغوية لأنها صور وأحداث اجتلبها الشعر من خارج اللغة وجعلها بمثابة اللغة، وأن غرض الشاعر الذى عقد عليه كلامه يبدأ من اختيار اسم الصاحبة ، لا شك أنك ترى فرقًا كفلق الصبح بين من يذكر «لميسًا» ومن يذكر «فرتنى» التى هى فى الأصل اسم ولد الضبع وبين من يذكر «الغضوب» وبين من يقول «سعدى» ومن يقول «سعداك» كل هذا مغموس ومعبأ بالمغزى ويضوع به، ولو وضعنا اسم الغضوب مكان لميس لاختلف الكلام وانتقض الغرض.

وقد رأيت أسماء الأمكنة واختيار هذه الأسـماء له صلة كذلك بغرض القصيدة فرق بين من يذكر الدَّخـول وحَوْمَل، ومن يذكر أسماء هى فى أصلها مـسايل ماء وكذلك رأيت فروقًا فى أوصاف وذكر الرياح التى تعفو بها آثار الديار فقد توصف الرياح بأنها نكباء أو أنها هوج أو أنها تجـر ذيولها أو أنها رياح تدفعها رياح، وكل ذلك له صلة بالغرض، ولا يوضع بعضه مكان بعض، ورأيت فرقًا بين من يُسكنُ الديار «العين والآرام» ومن يسكنها «ثيرانا فى مغابنها طلاء»، ورأيت فرقًا بين ناقة عينها كأنها من ذهب وناقـة تجول بصاحبها لتصرعه فيـقول لها أقصرى، كل هذه التنوعات مـعبأة بمقـصود الشاعر وغـرضه ومن الإهدار للشعـر أن نعدها مقـدمة للمقصود، وكل هذا لا يجوز لنا أن نراجعـه بمعزل عن العلم المتسع بطرائق العربية فى الإبانة عن المعانى لأن من هذه الطرائق ما له دلالات خفيـة فقد تجد فى تقديم كلمة أو تعريفـها أو تنكيرها ما يعـين على كشف هذه الخفايا وفرق كـبير بين واو تعطف جملة علـى جملة وواو تعطف غرضـا على غَرض، وواو هى واو رُبَّ كل هذه الأدوات والروابط لابد من الانتفـاع بها فى التحليل وإلا أغلق الشـعر بابه فى وجوهنا واضطرب علينا ظاهره وخفيه، وقد ينتهى بك النظر إلى أن تدرك أن هذه الأبيات التى نسميها غَرض القـصيدة هى أقل أبيات القصيدة حظًا فى الدلالة على الغرض، وكأن الشاعـر لما وصل إليها كان قد انتهى من إضمـار ما أراد أن يضمره فى شعره، وإضمار المعانى صنعة أغمض وأخفى وأشق من التصريح بها الذى تراه فى هذه الأبيات، وربما انتهيت إلى أنها أقل أبيـات القصيدة حظًا من الجودة أيضًا، ولم أحسن فهم قول البحترى «والشعر لمح تكفى إشارته» إلا بعد طول المعالجة لهذا اللون، وقد كتبت فى هذا الكتاب ما تيسر لى من ذلك.

ومن أوضح ما يراه دارس الشـعر الجاهلى أن كـثيرًا منه ومن أجوده كـتب بعد فوات الشـباب، وأن هذه القصائد التى كـتبت بعد فـوات الشباب غالبًـا ما تكون حديثًا عن الشباب ورجوعًا إلى أيامه وأحداثه واسترجاعًا لمناقبه ومسراته وفواضله، ورائعة امرئ القيس «قفا نبك» استظهر ابن الأنبارى أن امرأ القيس قالها بعد فوات

زمن الشباب وذلك فى تعليقه على قول امرئ القيس يذكر ناقته التى نحرها للعذارى (فوا عجبًا من رحلها المتحمَّل) قال ابن الأنبارى: يعجب من سفهه زمن شبابه، ورائعة امرئ القيس الثانية التى هى أخت المعلقة والتى مطلعها «ألا عم صباحًا» صرّح فيها الشاعر بأنه يقولها بعد شبابه وذلك فى قوله «ألا زعمت بسباسة اليوم أنى كبرت» وأيضًا رائعته الثالثة (سما لك شوق بعد ما كان أقصرا) قالها فى رحلته إلى قيصر التى مات فيها ولا أعرف له شعرًا يفضل هذه الثلاثة، وهكذا نجد أكرم شعر عبيد بن الأبرص الذى يذكر فيه أن صاحبته تغيرت عليه لما شاخ، أو أنها هبت بليل تشتكيه، أو أنها تغيرت عليه أو أن شيبه صرف عنه الغوانى، ورائعة المرَّار بن منقذ المفضلية افتتحها بقوله:

عَجَبٌ خَوْلَةُ إذ تُنْكِرُنى   أم رأتْ خولةُ شيخًا قد كَبِر

وقوله «أم رأت خولة» معناه بل رأت خولة يعنى الإضراب وأنها تنكره لأنها رأت شيخًا قد كبر.

وهذه القصائد التى تنزع هذا المنزع وتدور فى هذا الباب غالبًا ليس فيها هجاء ولا مديح وإنما هى ذكريات أيام شباب قد ذهبت ولن يعود وتدور معانيها حول ذكر الصبوة وما يتصل بها من ذكر الحسان وحسنهن ونعمتهن، وأنه يدخل عليهن الخباء أو بيت العذارى وأنهن لا ينكرن عليه ذلك إلى آخر ما تراه فيه يركز ليس على صبوته بهن فحسب وإنما أيضًا على ميلهن له وهن من ذات الحسن والدّلّ والنعمة.

كما تدور معانى هذا اللون من الشعر أيضًا على ذكر الصيد وما يتعلق به من ذكر الفرس وصلابته وسرعته وما يتصل بهذا الباب ثم ذكر السرب ونعاجه وحسنهن ثم ذكر الغلام وحذقه ولباقته إلى آخره، كما ترى الشاعر فيها يذكر حروبه وسلاحه واقتداره وتقدمه وأنه يَرْبَأُ لقومه ويحمى حيه، كما تراه يذكر المطر واستشرافه البرق والسحاب، وأنه يسهر لذلك وينام عنه صاحبه وأنه رجل العشيرة الساهر على حاجاتها كما تراه يذكر الرحلة فى الأرض المخوفة، وما يتبع ذلك من

وصف ناقته ووصف الوحش كالعير والثور إلى آخره، وأرى هذه الأبواب التى هى الصبوة والصيد والحرب والخمر واستشراف المطر والرحلة، تقترن أو يقترن أكثرها فى هذا النوع من الشعر الذى قيل بعد فوات الشباب، وقد لاحظت أن الشاعر حين يتذكر أيامه وشبابه وأحداثه ويسترجع ما فات يكون كلامه أكثر جودة وأكثر صقلاً لأنه رجع إلى هذه الأيام والأحوال بحنين أكثر دفئًا وبشوق أكثر توهجًا فجوّد وحسّن، وارتفع كلامه بمقدار ما وجد.

وقد جمع امرؤ القيس أربعة أبواب من هذه الأبواب التى رأيناها تقترن فى هذا الضرب من الشعر وذلك فى قوله المشهور:

كأنى لم أركب جواداً للذّةٍ ... ولم أتبطّن كاعبًا ذات خَلْخَال
ولم أسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولم أقل ... لخيلى كُرِّى كرَّةً بعد إجفال

ذكر الصيد والصبوة والخمر والحرب، وهذه الأبواب التى جمعها امرؤ القيس فى هذين البيتين حين نضيف إليها الرحلة واستشراف السحاب نكون قد جمعنا بذلك أكثر أبواب معانى الشعر الجاهلى تكراراً فى هذا الشعر.

وإذا كان الشاعر غالبًا ما يحدث بها صاحبته حين تذكر له شيخوخته فإنه أيضًا قد يضيف إليها فى هذا المقام فواضل أخرى ومناقب أخرى وترى للشعر فى هذا مَهْيَعًا واحداً ومنزعًا واحداً يذكر الشاعر فيه مقالة صاحبته ثم يبدأ بذكر هذه الأحوال كما يقول عبيد:

ألاَعَتَبَتْ علىَّ اليوم عِرْسِى ... وقد هبَّت بليل تَشْتَكِينى
فقالت لى كَبِرْتَ فقلت حَقّاً ... لقد أخْلَقْتُ حينًا بعد حينِ

ثم يقول:

فإن يك فاتنى أسفًا شبابى ... وأضْحَى الرأسُ مِنِّى كاللَّجينِ
وكان اللَّهْوُ حَالَفِنى زمانا ... فأضْحَى اليومَ مُنْقَطِعَ القَرِين

فـقـد ألِجُ الخـبــاء على العــذارى كــأن عــيــونهن عــيــونُ عِين

ثم يذكر رمحه وطعنه ثم يذكر الرحلة، وهكذا يمضى الشعر فى هذا الباب على هذا الوجه ومعنى «أخلفت حينًا بعد حين» قطعت الزمان بعد الزمان وأخلفته ورائى.

وقد يذكر الشاعر مع هذه المناقب التى هى مناقب الشباب مناقب أخرى، وإذا كان قد جعل تغَيُّر الصاحبة عليه مهيعا ومسلكًا لصياغة أيامه هذه، فإن الدارس للشعر الجاهلى يرى أن خطاب الصاحبة بمناقب الشاعر وفواضله فى أيامه كلها خطابًا عامّاً وليس خاصّاً بحال شيخوخته، وإنما نرى قصائد كثيرة يعمد فيها الشاعر إلى الحديث عن عفته، وعفة قومه، وسخائهم، وترفهم، ووفائهم، وانتصاراتهم، وبطولاتهم وسخائه هو وربيئته لقومه، وفصله فى الخطاب فى المقام الصعب إلى آخره كل هذا يخاطب به الصاحبة ويغنيه فى حضرتها كما ترى فى قصيدة الحادرة «أسميّ ويحك هل سمعت بغدرة» إلى آخر ما قال، ولبيد العامرى يخاطب نوارا بفواضله ومناقبه ويقول «أو لم تكن تدرى نوار بأننى» ثم يذكر أنه يصل من وصله ويقطع من قطعه، وأنه لا يقيم على ضيم، وأنه يُغلى ثمن الخمر أى يشترى أعرقها لأصحابه، وأنه يحسن سماع الغناء، ويحسن سماع نغم الأوتار حين تعالجها فى أناة وحذق أنامل مغنية حسناء تحسن استخراج النغم من هذه الأوتار، وأنه يكشف كروب الطبيعة بسخائه حين يُحْدِقُ الجدب بالناس، وأنه يحسن الربيئة لقومه وأنه يحسن فصل المقال فى المقامات الصعبة التى يجتمع فيها رؤوس الناس وأهل الدهاء منهم. إلى آخر ما قال وهو فى كل ذلك يحضر نوارا. كما أن الحادرة فى كل محمدة يخاطب بها سمية وهذا كثير جداً فى الشعر، كلٌّ يصوغ مناقبه ومناقب قومه ويصوغ مروءته ونجدته وكرمه ورعايته للفقير وإطعامه الناس فى أيام الجدب، وحربه ودفاعه عن حوزته إلى آخر هذا الفيض من فضائل النفس ثم ينشده بين يدى صاحبته، وكأنها هى الراعية لهذه المناقب وأن مقدار اكتساب الرجل من هذه المناقب هو الذى يرشحه لها، وقد رأيت سيدنا العباس بن

عبد المطلب لما ثبت مع رسول الله ﷺ يوم حنين يوم تولى كبار الصحابة وعفا الله عنهم ولم يثبت مع النبى ﷺ إلا سبعة من بنى أبيه عبد المطلب ثم أبو بكر وعمر وهؤلاء السبعة هم العباس وابنه عبد الله وابنه الفضل وابن أخيه على وابن أخيه متعب بن أبى لهب وابن أخيه سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابن أخيه ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب هذا الموقف الذى لا يطمح المسلم أن يلقى الله بأجل منه يقول فيه العباس:

ألا هل أتى عِرس مكَرِّى ومَوْقِفِى … بوادى حُنَيْنٍ والأسنَّةُ تُشْرَعُ

وكل هذا يؤكد أن المرأة فى الجاهلية كانت قد بلغت درجة عالية من الرقى وأنها كانت مولعة بمكارم الأخلاق، ورعاية ذوى الحاجات، وكل ما يكسب المرء نبلاً وشرفًا، وأنها كانت عند الرجل كذلك ولم تكن ساذجة ومتاعًا حياً كما تصورها كتاباتنا التى تتحدث عن هذا العصر وعَيْنُها على كلام المستشرقين.

وأعتقد أننا لو تخلينا عن عادة نقل بعضنا عن بعض أو نقل ما يكتبه الأغيار عنا والتزم كل من يكتب عن الشعر الجاهلى أن يراجع الشعر بنفسه وأن يرصد ما تراه عيناه وأن يكتب فيه من خلال مدارسته هو، أعتقد أننا لو فعلنا ذلك سنطرح أكثر ما بين أيدينا عن هذا الشعر، لأنى لم أعرف عصرًا من عصور الأدب كان الشعر فيها زاخرًا بمكارم الأخلاق وبالمروءات وفضائل النفوس كما أعرف ذلك فى الشعر الجاهلى، وقد رأيت أوس بن حجر وهو يبكى فضالة بن كلدة الأسدى يبكى مروءات وشيمًا، ويصوِّر أهل الحاجة الذين كان يرعاهم فضالة فى صور لم أقرأ أفضل منها فى بابها، وقد وقفت كثيرًا عند صورة هذه المرأة التى بكت فضالة والتى صورها أوس البارع فى قوله:

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نواشرها … تُصْمِتُ بالماءِ تَوْلَبًا جَدِعا

ورأيتها صورة تنبض بكل معانى الرحمة والمروءة، ورجولة هذا الشهم الذى حل من نَفْسِهَا محل أهلها لأنه كان يرعاها فوقفت تبكيه مع من كانوا يبكونه،

ورأيت أننا نخطئ كثيرًا حين نقرأ مثل هذا البيت ولا يعنينا منه إلا أنه عبر عن الطفل المضرور بالتولب وأن هذا من مقدمات الكلام فى الاستعارة غير المفيدة وإن كان هذا مِمَّا لا يجوز الترخص فيه، ولكن الخطأ هو أن نغفل هذا المعنى الإنسانى الزاخر بالتعاطف والرعاية الكريمة من كرامٍ كانوا يتعهدون بؤساءنا فى زماننا الأول. وقد كان عدل هذا البيت عندى قول لبيد:

وغداةَ ريح قد كَشَفْتُ وقِرَّةٍ إذْ أصْبَحَتْ بيد الشَّمال زِمَامُها

والشعر زاخر بتصوير زمن الشدة وتصوير رعاية كرام الناس للناس فى هذا الزمن وكأننى لم أقرأ فى هذا المعنى أوجز ولا أعلى ولا أسمى من هذا البيت وحسب لبيد بن ربيعة أن يكون صاحب هذه الفضيلة وتأمل كلمة (كَشَفْتُ) وإيجازها وسدادها وموقعها من القلب وقد شغلنا ما فى البيت من الاستعارة المكنية وأنه جعل للشمال يدًا ولِلْقِرَّةِ زمامًا وأن يد الشمال أخذت بزمام القِرة وهذا كله جيد وتحليل لجوهر صنعة الشعر تلك الصنعة التى بلغت غاية الإتقان ولكن كل هذا يجب أن يكون معه بيان هذه الخليقة الجاهلية التى افتقدناها فى مجتمعاتنا التى لا تزال فى حاجة إلى مثلها، وإنه لتروعنى مكارم الأخلاق التى تغنَّى بها شعر هذه الجاهلية، وأقطع بأن كلمة «جاهلية» إنما يراد بها جاهلية العقيدة فقد ارتكس الناس فى وهدة الوثنية وقد طال زمن النبوات عليهم ولم يأتهم نذير منذ زمن أبويهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وقد وصفهم القرآن الكريم بالعلم وذلك فى قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [سورة فصلت آية ٢] وإذا استثنينا هذه الوثنية وما كان يعتريهم من حمية الجاهلية فى بعض شؤونهم فإنك واجد وراء ذلك جيلاً مولعًا بأعمال المروءات ولما أذن الله بانتزاعهم من هذه الوثنية التى طال مكثهم فيها حتى تغلغلت فى لحمهم وعظامهم كانوا خير أجيال الأرض، وهم المهاجرون والأنصار وهم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهم الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم

ينصرون الله ورسوله، وراجع حديث الكتاب العزيز عن المهاجرين والأنصار واعلم أن هؤلاء هم الذين نسميهم الجاهليين، والذى حدث أنهم دخلوا فى دين الله والله أعلم حيث يجعل رسالته، وأنهم هم الذين تلقوا البلاغ عن رسول الله ﷺ وهم الذين بلغوا عن الله، وصدقوا ولا أشك فى أنهم جيل أعده الله لهذا الأمر، ولا أشك فى أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه قبل أن يبعث كان عظيماً ولكنه لم يكن وحده، وإنما نشأ فى قومه وهو واحد منهم، نعم كان أفضلهم ولكنهم لم يكونوا من سقاط الناس، كان أبو بكر عظيماً فى جاهليته وقد وصفه ابن الدُّغُنَّة بما وصفت به أمنا خديجة رسول الله ﷺ لما جاءها يرجف فؤاده وقالت: له لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتكسبُ المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر. وهذا هو وصف ابن الدُّغُنَّة لسيدنا أبى بكر، أقول كان محمد بن عبد الله قبل مبعثه عظيماً وكذلك كان عمه الحمزة وعمه العباس وجده عبد المطلب الذى كان يطعم الطير والوحش، لم ينشأ عليه السلام فى أراذل، وإنما كان قومه من ذوى الأحلام وقد ذكر العلامة التجيبى المغربى فى كتابه «فتح الباب المقْفل لفهم القرآن المنزل» أن هذا الجيل الذى تلقَّى البلاغ عنه ﷺ جيل قد أعده الله، قال رضوان الله عليه «إن الله تعالى إذا أقام داعيًا له اختار له مِمّن يُلَقّنُ عنه ويتبين منه أولى أحلام ونهى، كمَّلهم الله ببداية إفضاله بها عليهم إلى المنتهى».

راجع قوله «اختار له أولى أحلام ونهى» أو راجع الشعر الجاهلى، ولن تجد فى شعر العربية شعراً عامراً وزاخراً بصور رجال أولى أحلام ونهى كما تجد فيه، ومعنى كلام الشيخ أن الأحلام والنهى كانت قائمة فيهم قبل الإسلام وأنهم اختارهم الله لنبيه لأن لهم أحلامًا ونهًى وأن الإسلام العظيم صادف جيلاً من ذوى الأحلام والنهى فأنتج منهم خير أجيال الأرض وهم الذين كانوا معه ﷺ ولكل نبى معية، وناهيك بهم.

ثم إن سيدنا رسـول الله ﷺ قد بين كل ذلك وأعطى أهل الجاهليـة حقهم من حيث هم كـرام الناس لما قال عليـه السلام «الناس مـعادن خـيارهم فى الجـاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» فـأشار عليه السلام بلفظ صريح إلى أن الخيرية فى الإسلام امـتداد لخيـرية الجاهلية، وأضـاف شرطًا لخـيرية الإسلام وهى الفـقه فى الدين، وأن أهل الجاهليـة أعدوا إلى هذا الفقـه فلما جاءهم الفـقه فقـهوا، وهذا حسـبى وقد ذكرته لأنى أرى بعـضنا فى حميا حـبه للإسلام يصف أهل الجـاهلية بالرذائل والسقـوط ليتبـين أن الإسلام صنع من هؤلاء الأراذل خـير أجناد الأرض وأجيالها والأمر ليس كذلك وليست عـظمة الإسلام فى حاجة إلى أن يسقط الجيل الذى تلقاه عن رسول الله ﷺ وصاروا هم بالنسبة لمن بعدهم رسل رسول الله ﷺ وكلهم عدول والإسلام العظيم الذى هو بيننا هو نفسه الإسلام كيوم أن نزل وحالنا كما ترى، ومـرجع ذلك إلى أن عوامل كثـيرة مقصودة وغـير مقصـودة تحول بيننا وبين حسن التلقى وهذا حسبى، ويكفى أن تعلم أن الملأ من آل فرعون غرسوا فى دستـور البلاد تأثيم من يقـول الإسلام هو الحل، وفـتحـوا باب المجالس النيـابية للسمـاسرة ولصـوص المال العام وأغلقـوها فى وجه كل من يقـول إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم.

بقى شىء من الواجب أن أنبه إليه وهو أن الشعر الجاهلى كما قلت يدور حول أبواب من المعانى كالصبوة والرحلة والصـيد والحرب وذكر المناقب إلى آخره، وأنه يمكن حصره فى أبواب وأنه يتكرر فـى كل باب من هذه الأبواب يتكرر فى شعر الشاعر الواحـد ويتكرر فى الشعر كله، فلو جمعت مـا قيل فى أى باب لوجدت الكثير من الشعر والمعانى متقـاربة ومع هذا التكرار وتقارب المعانى نجد كل قصيدة كأنها شىء متفرد متميز ومختلف عن كل ما عداه سواء شعر الشاعر وشعر غيره، وكأن هذه القصيدة أو كأن هـذه الرحلة أو هذه الصبوة هى وحدها التى قيلت فى هذا البـاب لأن فيـها مـن الاختـلاف فى الأبنية والـصور والأحـوال والتراكـيب والأحداث والمعانى ما يجعلها شيئًا مختلفًا تمامًا، ومرجع هذا إلى قوة الطبع وقوة

الإحساس والهيمنة التامة على اللغة، وإذا وازنت بين كلامين فى باب واحد وجدت الفروق الدقيقة الرائعة تضع أمامك حدودًا فاصلة بين الكلامين. وإذا وازنت بين هذه الأبواب فى العصر الجاهلى والعصور التى تلته تكشف لك الشيء الكثير مما داخل الشعر وأحدث فيه تغييرًا وتطويرًا، وأعتقد أن استقصاء هذه الأبواب فى العصور المختلفة ودراستها دراسة علمية جادة من الضرورى لمعرفة تاريخ الأدب معرفة تخرج بنا من هذا التكرار الممل فى هذا الباب الذى هو ألصق أبواب الدرس الأدبى بجوهر الأدب وبعناصرها المتحركة والثابتة، وأهم من هذا أننى أجد القرآن الكريم الذى أنزله الله بلسان عربى مبين تتكرر فيه أبواب المعانى التى هى مقاصد القرآن كالحديث عن آيات الله سبحانه والحديث عن القيامة والبعث والنفخ فى الصور والأرض جميعًا قبضته والقصص إلى آخره، وكل هذا قد تكرر فى القرآن العظيم. وكل صورة من هذه الصور التى تكررت كأنها عالم وحده ولا يمكن أن نجد جملة فضلاً عن آية يفى غيرها بمعناها، وكذلك الشعر الجاهلى لا أجد فيه بيتًا واحدًا يسد غيره مسده، وهذا مشروط بوعى الدارس الذى لا يتفقد المعانى العامة وإنما يتفقد صور المعانى وطرائق العبارة عنها، ويدرك الفرق بين مثل قوله تعالى فى سورة نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، وفاعل «قال» ضمير يعود على نوح، وقوله جل شأنه فى السورة نفسها ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [نوح: ٢١] وذلك بوضع المظهر موضع المضمر، وقوله جل شأنه فى السورة نفسها أيضًا: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ﴾ [نوح: ٥] لزيادة واو وإذ استوت هذه الصور الثلاثة عندك فدع هذا الباب وراجع دراسة طرائق العربية فى الإبانة عن المعانى لأنه لا يغنيك عن درسها شيء، وإذا كنت ممن يدركون هذه الفرق أيقنت أن وضع تركيب من هذه التراكيب الثلاثة مكان غيره ينتقض به المعنى، وأدركت أننا حين نسمى هذا تكرارًا إنما نتسامح فى معنى كلمة تكرار، وقد راقنى أول عهدى بطلب العلم وأنا أقرأ تفسير سورة «ألهاكم التكاثر» قول الزمخشرى فى قوله تعالى ﴿كَلاَّ سَوْفَ

تَعْلَمُونَ﴾ أن كلا سوف تعلمون الثانية ليست تكرارًا للأولى لأن فيها زيادة توكيد يجعلها غير الأولى، وقد أومأ الباقلانى إلى أن ما نسميه تكرار القصص من إعجاز القرآن، وأن الله سبحانه بين لعباده أنه لا يأتى بهذا القرآن إلا هو سبحانه، ولا يأتى بمثله إلا هو سبحانه، وأراد بالمثل المكرر، فإذا كان دوران معانى القرآن حول أبواب معينة يعد إعجازًا، فإن دوران الشعر الجاهلى حول أبواب معينة يعد من التجويد والتثقيف وقوة الطبع، هذا والله أعلم.

محمد أبو موسى

مكة المكرمة سنة ١٤٢٨هـ